صلاح حافظ

مستقبل بلا معجزات !

لو كان السادس من أكتوبر « معجزة » ، كما يقال ، ما كان لنا بعده مستقبل !

إن قيمة الحدث التاريخى أنه يجرى حسب طبائع الأشياء ، لا عكسها ؛ فى حين أن المعجزة تجرى عكس هذه الطبائع ، ولهذا لا تكون إلا حدثاً عارضاً ، ولا يكون لها من بعدُ أثرٌ أو مستقبل .

عندما أراد العقاد – فى كتابه عن عبقرية محمد – أن يدلل على نبوة الرسول جعل فى مقدمة الأدلة أن العصر كان فى حاجة إلى نبى ، وكان محتماً أن يظهر .

وينطبق هذا القول بحذافيره على أى حدث تاريخى آخر .

فالثورة الأمريكية غيّرت وجه التاريخ لأنها جاءت فى اتجاه حركته الطبيعية ، حركة الاستقلال القومى . والثورة الفرنسية فعلت الشىء نفسه ، لأن الإقطاع الذى قامت ضده كان من طبائع الأشياء أن ينتهى حكمه . والثورة السوفيتية لم تهزّ العالم إلا لأن الاشتراكية هى المستقبل الطبيعى لتطور المجتمع الإنسانى . ولو كان انتصار أى من هذه الثورات معجزة لما تغير بها شىء ، ولما ذكرها التاريخ إلا على

هامشه كحادث ثانوى عارض .

ونحن فى أيامنا هذه نقرأ مئات الأخبار كل يوم ، ثم ننساها . ولكننا لا ننسى حين يكون الخبر - على سبيل المثال - استقلال الجزائر ، أو هزيمة غزوكوبا ، أو إطلاق أول قمر صناعى ، أو اكتشاف دواء حاسم للسرطان . لا لأن كلاً من هذه الأخبار معجزة ، ولكن لأن كلا من هذه الأخبار كنا نتوقعه ، وكان حكم التاريخ أن يحدث ذات يوم ؛ فلما حدث شعرنا أن التاريخ خطا إلى الأمام . وأطلقنا عليه تعبير « الحدث التاريخى » !

بهذا المعنى كانت ثورة يوليو تاريخية .

وبهذا المعنى أيضاً كان ٦ أكتوبر يوماً تاريخياً .

كان حكم التاريخ أن يحطم شعب مصر أسوار هزيمته ، وأن يعبر لاسترداد أرضه . ولو لم يحدث هذا فى أكتوبر لحدث بعد شهر ، أوسنة ، أوجيل ؛ لأن طبائع الأشياء أن الشعوب لا تقهر ، وأن العدوان لا يدوم ، ولأن طاقة شعب مصر ، والشعوب العربية ، أقوى ألف مرة من طاقة العصابات العسكرية فى إسرائيل . . مهما كانت مدجّجة بالسلاح .

ولهذا فإن ما يستحق أن يوصف بالمعجزة ليس انتصار أكتوبر ، وإنما انتصارات إسرائيل السابقة عليه ، فكلها كانت عكس منطق التاريخ ، وكلها - ولهذا السبب - كانت مؤقتة ، ولم يكن لها مستقبل ، ولم تغير شيئاً فى تاريخ المنطقة .

لقد احتلت إسرائيل سيناء كلها عام ١٩٦٧ ، ومع ذلك ظل العالم هو العالم ، لم يتأثر اقتصاده ، ولا تناقضاته ، ولا أساليب تسليحه ، ولا موازين القوى فيه .

ثم زحف الجيش المصرى فى أكتوبر ، واحتل شريطاً من سيناء . . فإذا بكل موازين العالم تختلّ ، تنهار فيه أحلاف عمرها ربع قرن ، وتتغير استراتيجيات عسكرية وسياسية ، وتؤدى أزمة الطاقة إلى ظهور قوة عالمية جديدة اسمها العرب ، و . . . و . . . إلخ .

لماذا ؟

لأن احتلال سيناء عام ١٩٦٧ كان « معجزة » إسرائيلية . والمعجزات لا تغير التاريخ ، فى حين كان استرداد شريط من الأرض فى أكتوبر من طبائع الأشياء ، وكان وقوعه إعلاناً بأن التاريخ بدأ يستأنف مسيرته الحتمية ، وبأن الباب قد فتح لتطورات أخرى ، ومستقبل جديد ، مختلف .

إن هذه المقدمة الطويلة كانت ضرورية قبل أن أصوغ تصورى لمستقبلنا بعد ٦ أكتوبر .

فأنا أبنى هذا التصور – ببساطة – على اتجاه الحركة الطبيعية للتاريخ . وأعتبر أن مجد أكتوبر هو أنه حرر هذه الحركة من « سجن هزيمة يونيو » ، وقال للتاريخ : تقدم ، واصل مسيرتك !

وفى اعتقادى أن المستقبل الذى فتح أكتوبر الباب أمامه له أكثر من وجه . وأن كلا من هذه الوجوه يستحق أن نتأمله على حدة . . .

الوجه الأول : فلسطين الديمقراطية

فليكن الوجه الأول فلسطين ، باعتبارها رمز القضية ، ومصدرها ، وشعارها .

إن المستقبل الفلسطينى ، كما يحتم التاريخ ، هو الدولة الديمقراطية التى تجمع كل الأديان . فانفصال الناس دُوَلاً على أساس أديانهم لم يعد يسمح به العصر . وإسرائيل ، من الناحية التاريخية ، نكسة إلى الوراء . أو مطبّ على طريق التاريخ لن يلبث حتى يضيق به العالم ، إن لم يضق به أصحابه أنفسهم .

وقد فتح أكتوبر باب هذا المستقبل عندما أثبت أن إسرائيل اليهودية العنصرية المتعصبة قابلة للهزيمة ، وأنها ليست الحل الذى يضمن الأمن والسلام ليهود العالم .

وقد كان فى إسرائيل منذ إنشائها تيار يرى أن « الدولة اليهودية » ليست حلا لمشكلة اليهود . . مهما تسلحت ، ومهما بطشت ، ومهما استعانت بالقوى اليهودية العالمية ؛ ولكن هذا التيار كان دائماً خافت الصوت ، وكان موضع السخرية .

والآن جاء انتصار أكتوبر يجبر الإسرائيليين على الإنصات إليه ، ويتيح له أن يكون هو المستقبل .

وفى اعتقادى أنه سيجىء يوم يزور فيه العرب تل أبيب وحيفا وبئر سبع ، فى دولة فلسطين الديمقراطية ، وسيذكرون يومها أن البداية كانت ٦ أكتوبر !

الوجه الثانى : مصر الاشتراكية

أما الوجه الثانى للمستقبل ، فهو فى اعتقادى : مصر الاشتراكية .

إن الاشتراكية هى تيار التاريخ . وفى مصر ابْتُلِيَت الاشتراكية بأخطاء التصقت باسمها ظلماً . وقبل أكتوبر اتهمت بأنها سبب هزيمة يونيو ، وكاد يكرهها حتى المستفيدون منها ، وكاد زحفها يتجمد إلى الأبد .

لكن أكتوبر أعاد فتح الطريق لها .

فالنصر الذى حققه ثبت أنه كان مستحيلا لولا وجود القطاع العام ، ومساهماته ، وخضوعه لتخطيط الدولة وتوجيهاتها وتكليفاتها .

وكل ما قاتل به الجيش المصرى من أسلحة ومهمات – غير الواردة من الخارج – كان من صنع العمال ، وتوفر للمقاتلين بفضل تضحيات هؤلاء العمال ووطنيتهم وفدائيتهم .

والقوات المسلحة التى حققت النصر كان معظمها من أبناء العمال والفلاحين ، وما كان يمكن أن تنتصر لولا أن العلم أتيح لها مجاناً ، ولولا أن الثورة رفعت مستوى وعيها السياسى والاجتماعى ، وحولتها من أدوات خاضعة إلى قوى حرة شاعرة بكرامتها ومدركة مسئولياتها الوطنية . وقبل الثورة كان الجندى المصرى فرداً فى قطيع يساق برغم أنفه إلى قتال لا يفهم سببه . وما كان يمكن أن يتغير هذا الوضع بغير الثورة والاشتراكية .

إن تجربة أكتوبر – باختصار – قد أنصفت الاشتراكية . وأكدت أنه لا بديل ، لكى نستكمل النصر ، من مواصلة الطريق الاشتراكى والتمسك بإنجازاته المادية والبشرية .

الوجه الثالث : مصر العلم

وجه آخر ، ثالث ، لمستقبلنا بعد أكتوبر . . يمكن أن نطلق عليه اسم : مصر العلمية !

إن اتجاه التاريخ هو العلم . ولم يعد ممكناً أن يحلّ إنسان العصر قضاياه إلا بواسطته . وكل يوم يمضى يكتسب العلم أرضاً جديدة ، ينتزعها من سلطان الخرافات المتخلفة ، والعلم أصبح يفرض نفسه على الحياة اليومية حتى الذين يشككون فيه ، ويعادونه . بفضله يأكلون ويشربون ويلبسون ، وإليه يلجأون فى الصحة والمرض ، وفى الغنى والفقر . ومهما خطبوا ضده فإن كلا منهم يجاهد لكى يسلّح أولاده به ، ولا يطمئن – فى أى تصرف شخصى – إلا إلى أحكامه .

وقد جاء أكتوبر يدفع عجلة هذا التطور العلمى دفعة هائلة إلى الأمام . . عندما أثبت أن حلم العبور الذى كان مستحيلا صار ممكناً بالتخطيط العلمى .

درست القيادة ، علميًّا ، امكانيات سلاحنا وسلاح العدو ، وأعدت لكل سلاح يتفوق به العدو سلاحاً مضاداً يشلّ فاعليته .

درست خطة الهجوم ، وظروفها ، وموعدها ، على ضوء علمى بحت . واختارت الموعد بعد حساب علمى دقيق لظروف العدو ، وظروف الجوّ ، وظروف تيارات الماء فى القناة ، وظروف الخط الحصين الذى سيكون على جنـــودنا اقتحامه . . إلخ .

درست كل شىء بعقلية علمية ، لا تترك شيئاً للمصادفة ، ولا تترك شيئاً للحظ ، أو الأوهام .

وبينما أنصار الجهل والخرافة يهاجمون العلم على أساس أنه ضد الإيمان ، جاء أكتوبر يثبت أنه السلاح الأول للإيمان ، وأنه لا انتصار للدين بغير علم ، ولاقيمة لجهاد إذا كان لا يتسلح به .

ولأن انتصار أكتوبر ما يزال مهدداً ، والعدو يستعدّ كل يوم لمحاولة إجهاضه ، فإن الحاجة إلى العلم صارت أكثر مساساً مما كانت قبل أكتوبر .

ومع كل تطور جديد فى قوات إسرائيل العسكرية أصبح علينا أن نتسلق فى العلم إلى مستوى أعلى .

ومعنى هذا ان مصر بعد أكتوبر قد صار قدراً عليها أن تعيش العلم أكثر فأكثر ، وأن أكتوبر قد فتح الباب أمامها إلى اللحاق بالعصر ، بل أرغمها على ذلك . . من أجل أن تحتفظ بانتصارها .

الوجه الرابع : مصر الديمقراطية

كسبت مصر حرب أكتوبر دون أن تعلن أحكاماً عرفية ، ودون أن تستخدم السلطة فيها أى قانون من القوانين الاستثنائية .

وقبل هذا كانت القاعدة أن تحكم مصر بالسلطة المطلقة . وكانت هذه القاعدة عكس اتجاه التاريخ ، الذى يقضى بأن الشعوب فى النهاية هى السلطة العليا ، وبأن المستقبل ، فى النهاية ، لديمقراطية الشعب الفقير الكادح . لكن اتجاه التاريخ ، وحكمه ، لم يتح لهما قط أن يفرضا سلطانهما فى مصر .

وثورة يوليو أعظم حدث فى تاريخنا الحديث تمسكت بأن تكون من أعلى ، وبأن تحقق إنجازاتها التاريخية بإدارة القادة وحدهم . واستخدمت عدداً من القوانين الاستثنائية ، والأجهزة غير القانونية ، مما لم يسبق مثله فى تاريخنا كله . وكانت تتصور طول الوقت أنها إذا تخلت عن هذه الأسلحة الباطشة فسيخذلها الشعب ، ويسير مع أعدائها . وسيندرج إلى الوقوف ضدها وضد نفسه !

وقد كان هذا التصور المصدر الحقيقى لكل سلبيات يوليو وهزائمه ، بما فى ذلك هزيمة ١٩٦٧ ؛ فبالخوف من الديمقراطية حكمت مراكز القوى ، وفرضت على الشعب زعامات « ثانوية الجانب » لا تمثله ، ومنحت السلطة للذيول بدلاً من الأنصار ، بل إنها سجنت مئات من أنصارها لأنهم « خطرون » ، يؤيدونها من موقع الحرية !

وكانت ثورة يوليو تبرر هذا الخوف من الديمقراطية بمبررات كثيرة ، تحولت مع الزمن إلى نظرية متكاملة . . هى التى قادت فى النهاية إلى هزيمة يونيو القاتلة .

لم يدحض هذه النظرية إلا ٦ أكتوبر .

قبله ألغيت كل الإجراءات الاستثنائية . وخرج المعتقلون من معتقلاتهم . وأعيد الصحفيون المطرودون إلى أعمالهم . ثم بدأ القتال دون أن تعلن حتى الأحكام العرفية ! فماذا كانت النتيجة ؟

لم يخذل المعركة أحد ، ولم تحدث محاولة انقلاب ، ولم يختلّ الأمن ، ولم تختف السلع ، ولم ينتهز اللصوص المحترفون الفرصة ، وثبت أن الديمقراطية هى الضمان الحقيقى لوجود جبهة داخلية متحدة ، متفاعلة مع جبهة القتال بصورة إيجابية .

ومن يومها والديمقراطية فى مصر تزداد نفوذاً ، والخوف منها يتراجع حتى يكاد يختفى . وفى جو الحوار الدائر الآن حول مستقبل الاتحاد الاشتراكى ، والأحزاب ، وتعديل الدستور ، يبدو واضحاً أن المستقبل فى مصر قد صار - بصفة قاطعة - فى اتجاه الديمقراطية ، وأن وجه مصر الحقيقى الحر هو وجهها للمستقبل .

الوجه الخامس : مصر المصرية !

من وجوه المستقبل أيضاً ، بعد أكتوبر : مصر السماحة الدينية . مصر المصرية .

إن حكم التاريخ هو أن تندثر فى العالم فروق اللغة والعنصر والجنس والدين . وقد حققت مصر فى ثورة ١٩١٩ مستوى من الوحدة الوطنية ، والسماحة الدينية ، جعل القسس يخطبون على منابر المساجد ، والشيوخ يخطبون فى هياكل الكنائس . وسقط إلى الأبد ادعاء الإنجليز أنهم فى مصر لحماية « الأقلية المسيحية » من الأغلبية المسلمة !

كان الشعار وقتها : الدين لله ، والوطن للجميع .

لكن ثورة يوليو ، بخوفها من الديمقراطية ، واستنادها إلى السلطة وحدها . . أتاحت للحاكمين ممارسة فرز المواطنين . فأصبح هناك « متجاوب » و « غير متجاوب » ، « أهل ثقة » و « أهل كفاية » ، « خطرون » و « غير خطرين » ،

« شيوعيون » و« غير شيوعيين » . وكان حتماً أن تنتهى التقسيمات ذات يوم إلى « أقباط ومسلمين » .

فالنظام الذى يسمح بتقسيم أنصاره إلى فئتين لا مفر من أن يواصل التقسيم إلى أربعة ، ثم إلى ثمانية . ومصالح « الكواليس » التى تقوم بهذا التقسيم لا تتورع - ما دامت السلطة معها - عن اختراع مقاييس جديدة لفرز الناس كل يوم حسب أهوائها . ولا يعنيها ما تصيب من وحدة الوطن ما دامت تضمن مصالحها الضيقة الخاصة .

وقد وصلت مراكز القوى فعلا ، قبل سقوطها ، إلى حد استغلال لعبة « الأقباط والمسلمين » . واستخدمتها حسب مصالحها الخاصة . وروجت لها حتى كادت تجهض عملياً وحدة الأمة .

لكن أكتوبر جاء يعيد الأمر إلى نصابه .

عبر الجنود المسيحيون القناة وهم يصيحون مع زملائهم المسلمين : الله أكبر !

وكان أول شهيد لهجوم الثغرة المضاد ، مسيحياً .

وعين الرئيس السادات ، بعد العبور ، قائداً مسيحياً لأحد الجيشين اللذين عبرا القناة .

توحدت الأمة مرة أخرى على أرض الجبهة . سجلت أرض أكتوبر - بالدم - أن النصر ليس قبطياً وليس مسلماً ، وإنما هو مصرى فقط .

ولا جدال فى أن مستقبلنا - بعد هذه التجربة - سيبدأ مما حققته ثورة ١٩١٩ . والدليل هو المحاولات المشبوهة التى نشطت فجأة ، بعد أكتوبر ، لاختلاق أية هوة بين جناحى الأمة . فهذا النشاط ليس إلا رد فعل - أو « حلاوة روح » - للعبة الاستعمارية التى أجهضتها تجربة أكتوبر . والتى أتوقع أن يكون إجهاضها هذه المرة أبدياً ، وإلى يوم القيامة !

الوجه السادس : مصر العربية

يبقى بعد هذا : الوجه الأخير ، والأكثر أهمية ، لمستقبلنا بعد أكتوبر .

إن مصر لن تعود دولة ، وإنما ستصبح إقليماً فى دولة عربية كبرى .

إن هذا مصيرها التاريخى الذى لا جدال فيه . وهو ليس من صنع أكتوبر ، أو يوليو . وإنما هو صنع الأمر التاريخى الواقع . فالعالم كله يتجه إلى الوحدة بين البلدان ذات المصلحة الواحدة . وشعوب العالم العربى عاشت متحدة اثنى عشر قرناً . ولم تتمزق إلى دول متفرقة إلا على يد الاستعمار ، ولفترة لا تتجاوز قرناً ونصف قرن . وحكم التاريخ هو أن تعود لتتحد ، وتواجه العالم كقوة كبرى جديدة ، أو كقوة قديمة عادت تدب فيها الحياة .

إن حكم التاريخ هذا قد تعثر طويلا ، وعرقلته تجارب فاشلة . ابتداء من سوريا وانتهاء إلى ليبيا . وسيمضى بالتأكيد وقت طويل قبل أن يفرض نفسه ، ويتحول إلى أمر واقع .

لكن أكتوبر قد اختصر هذا الوقت بصورة حاسمة .

ففى اللحظة التى اندلع فيها القتال نسيت كل البلاد العربية خلافاتها ، واتحدت وراء مصر وسوريا .

الجزائر أسرعت إلى خط المواجهة ، ودفعت بكل ماتملك إلى مصر ، العراق دفع بجيشه إلى سوريا لكى يواجه الزحف الإسرائيلى المضاد . السعودية قادت حرب البترول ، وزودت مصر بأموال تمكنها من الصمود الاقتصادى بعد القتال . اليمن الجنوبيـــة أغلقت باب المنـــدب بالتعاون مع الأسطـــول المصرى . ليبيا بعثت بطائرات ، وبترول . لم تناقش أية دولة عربية وقتها أى خـلاف لها مع مصر وسوريا ، أو مع أية دولة عربية أخرى . حتى الذين ناقشوا جعلوا المناقشة على الهامش ، ولم يعطلوا بها مساهمتهم فى المعركة .

وهكذا . . كان أكتوبر بمثابة « بيان عملى » يثبت للأمة العربية أنها فى النهاية واحدة ، وأنها بالعقل الباطن لاتملك إلا أن تتحد وقت الخطر .

ثم إن أكتوبر فاجأ هذه الأمة بأن وزنها حين تتحد أكبر مما كانت تتصور . فمجرد اتحادها هدد الوفاق الدولى ، ومزق حلف الأطلنطى ، وفرض على العالم أزمة طـــاقة زعزعت صناعتـــه ، وأرغم أمريكا على أن تغير – لأول مرة فى

التاريخ – موقفها العدوانى الذى يساند إسرائيل ، وتتحول من دور الخصم لنا إلى دور الوسيط .

لقد أيقظت ثورة يوليو فى ضمائر العرب حلم الوحدة . ولكن أكتوبر أتاح أكثر التجارب إقناعاً بأنها ليست حلماً ، وإنما حقيقة .

والمستقبل بعد أكتوبر سوف يشهد فى اعتقادى نموّ هذه الحقيقة . ولا ينفى ذلك اشتعال الخلافات بعد أكتوبر ، ولا نقد كل بلد عربى لكل بلد عربى آخر . فهذا النقد دليل فى حدّ ذاته على أن كل عربى أصبح يعتبر البلاد العربية الأخرى بلاده ، له حق نقدها ، والمشاركة فى صنع سياستها ، والمعارضة إذا كانت هذه السياسة على غير ما يرغب .

* * *

هذه ستة وجوه للمستقبل الذى أتصوره بعد ٦ أكتوبر .

وهو ليس مستقبلا من صنع أكتوبر . وإنما هو المستقبل المكتوب سلفاً فى كتاب التاريخ . والذى لا مفر منه لأنه حكم طبائع الأشياء .

وفضل أكتوبر هو أنه – بعد أن تجمد هذا المستقبل وتعثر فى قيود الهزيمة – جاء يطلق سراحه ، ويحرره من قيوده ، ويقول له : تفضل يأيها المستقبل واصل طريقك . .